آماهُ : لا تبكِ علي

Mom, do not cry on me / Maman, ne me pleure pas

حلمي صابر - المحرم ١٤٤٥هـ



رجعتُ البيتَ حائرا

أفعلُ أو لا أفعل

اختاروني في سفينة الحرب لأركب

جندي

قالوا علينا أن نحرر أوروبا من هتلر

وكم على الأرض من هتلر ؟!

من أول وهلة دخلت البيت

قرأتني أمي ، ومسحت بجانبيها من الماء يديها

كانت تعدُ الطعام في المطبخ

نظرت في عيني

ولم إلى عينيها أرفع

سألتني : هل ستذهب ؟

محتار يا أمي

قلقٌ عليك

من سيخدمكِ ، من سيناولك المصحف

من سيغسل أواني المطبخ

من لحطب النار سينفخ ؟

محتار يا أمي

بينك وبين وطني

وأنتِ وطني في وطني

كيف عنك أسافر وأهجر

والجيش لا يجبرني أن أذهب

لأنك لوحدك

فظروف الحرب قد تُجبِرُ على مالا يُجْبَرَ

قالت لي اذهب

يجب أن تذهب

فأنا أعددتك لهذا اليوم

لا تشعرْ بالحرج ولا تضجرْ

ضممتها بين ذراعي

وعيناي على كتفها تدمع

يا حبيبة قلبي

يا نور عيني

سِمعتْ صوتَ نحيبي

وكان نحيبها أصمت

أخفته عني لئلا أتردد

فلا يمكنني أن أسمعَ بكاءها وأرحل

ودعتها وخرجتُ

وعيناي تنظرها عند النافذة،

وتتبعني عيناها ، ونزلت دموعنا من المحجر

ركبتُ السفينة

اليوم ٦ جوان ١٩٤٤

سننزل فرنسا

لننزع هتلر

وكم على الأرض من هتلر ؟!

جزائري محتل بفرنسا

وتريديني فرنسا أنْ أحرِّر فرنسا

حتى ديغول الهارب حكومته المنفية في بلدنا

ألم أقل لك :

وكم على الأرض من هتلر ؟!

آماه لا تبكِ علي

سأرجع منتصرا أو مهزوما أو مقتولا

هذه خيارات الحرب

" ليس التفكير في الموت هو ما يقلقني ،

يقلقني التفكير في العيش "

وصلنا شواطئ فرنسا

كان الألمان ينتظروننا

متاريس اخترقت قواربنا

مشينا في البحر

تخففنا من أحمالنا

وكيف سنقابل مدافع الأعداء ببندقياتنا

ليس ثمة وقت للتفكير

اندلع حب الحياة في قلبي

تذكرت أمي

أريد لها أن أبقى

ركضت وهربت من الرصاص الذي أمطرنا

سقط رفاقي واحدا واحدا تلو الآخر

احتميتُ خلفَ جدران الشاطئ

مضت الأيام

والقنابل حولي تدوي

والأشجار تحترق

والبيوت بالقصف تتهدم

دبابات وطائرات وقنابل من السماء والأرضِ

الحرب وما أدراك ما الحرب

في كل مكان قتلى حولي

لا أريدك أن تشمئز بروائح القتلى

حتى البغال مقتولة مع القتلى

وأصوات الطائرات تسبق مقدمها

ثم بقنابلها تقصفني

متوارٍ في خندقي

أقدامنا في الطين والوحلِ تبطئني

أعوام مضت

في سفننا للبحر أعبر

ولخنادق الطين أحفر

وللجزائريين أقبر

وقبل أن يستسلم هتلر

تربصَّ لي قناص في أفريل ١٩٤٥

ربما كان ينتظرني

توقف رشاشه

جريت مسرعا لاختبأ خلف الشجرة

وكانت رصاصته تتربصني

واحدة في فخذي

والأخرى أسفل بطني

وقعتُ

والدم الأحمر صبغَ بدلتي

ربطتُ فخذي

وضغطتُ بكفي على بطني

لأطيل أمد عمري

لا أعلم ما حدث بعدُ

صحوتُ

وأبصرتْ عيناي أمي ، اندهشتُ ، ابتسمتُ

تساءلتُ: أأنا أحلم ؟!

اقتربَ الطبيب مني

كيف حالك الآن يا جندي ؟

سألته: أتسألني ؟

أنا الذي أريد أن ادري

أين أنا ؟

وماذا جرى ؟

رحَبَّ الطبيب الفرنسي : أهلا بك

أبشرك ، انتهت الحرب

حررنا فرنسا وأوروبا وهزمنا هتلر

أنتَ هنا في المشفى في وهران بالجزائر

سنجري لك عملية بسيطة

أخرجنا الرصاصة التي في فخذك

ولا زالت الثانية في بطنك

نخرجها وسترجع إلى بيتك

كتبتُ ورقة إلى أمي ، أخفيتها تحت وسادتي

طلبتُ منها ألا تقرأها إلا بعد العملية

كان عنوانها:

أماه لا تبكِ علي

أماهُ لم يسؤني جرحي

ساءني دمعك بالحزن علي

أواه يا أمي دمعك مزَّق جرحي وكسر أضلعي

أتعبتك بالحمل صغيرا

وأسهرتك ليل مرضي

واليوم أنا أحزان في صدرك،

أريدُ ضمك بين ذراعي

ورسْم بسمة على شفتيك

وكيف أرد جميلك واليوم أنا ألم أتألم

أخفيت ألمي لئلا ترينه في وجهي وعيني

أريد أن أضمك يا أمي

وأقبلَ رأسكِ وأمسحَ دمعكِ وأقبلَ رجليك

رحلَ أبي وأملتي فيني عوضا، شممتي فيَّ رائحة أبي

ربيتني أن أحملَ قلبا حرا منذو صغري

أكرهُ الطغيانَ ، والاستبدادَ. أمزاجُ رجلٍ واحد يضيّعُ أمَّةً ؟!

هو سيضيعُ أيضا مع التضييع، لكنه لا يفهم !.

أماه لا تبكِ علي

أتوارى عنكِ لئلا ترينَ الألم

لا أريد أن أكون ألما في عينيك

بداخلي طمأنينة وسكينة أودعها ربي

الله يختبرنا ليرى صبري وشكري وصدقي

لست الأول مرضا ولا الأخير موتا

أماه اصبري

وابتسمي فخلف الألام أفراح

فقط قليلا من الوقت ، ونمضي

اجعلي يوم موتي يوم عرسي

ما هذه الحياة ، سئمتُها وسأمتني

لست من أهلها وهي ليست من أهلي

يا حبيبتي يا قرة العين هذا منديلي
فامسحي انحدار دمعي
فدمعك هو دمعي
عذرا يا أمي

ناداني الطبيب إلى الغرفة لنزع الرصاصة من رصاصتي
نظرتْ الأم إلى الورقة بعد العملية والدمع يجري على خديها

حبر ورقتي كتبته يا أمي بدمعي ودمي

كنت أعرف بأنني ميت

جرحي متسمم وانتشر سريعا في جسدي

سامحيني كان ذلك خارج قدرتي

دهشَ الطبيب ، وجدَ بارود رصاصةٍ في صدري

كان ذلك بعضُ قهري وحرارة قلبي : الجنديُ البلدي يحتلني بعد الفرنسي

سألتُ الطبيب الفرنسي قبل العملية :

كيف نُحرِّرُ فرنسا وهي تحتلني ؟

غادر المحتل الأجنبي

وكما قال البردوني

وصار المحتل من بلدي

كل يوم يضربني

وفي الزنزانة يقفصني

وأمرني أن أقتل أخي

ألم ترى السوداني يقتل السوداني !

السودان قبل الحرب مدمرة

الناس في فقر

حتى صاحب الدكان عنوان لوحته " مُقدِّر الظروف "

لا يبيع للمريض علبة مرهمَ

إنما يبيعُ مسحة من المرهم لأنه يقدر الظروف

حتى هذا المحلَّ أُقفِلَ ؛ لأن المريض لم يستطع أن يدفعَ

كل الميزانيةِ أُنفِقتْ على جيش الوطن

وتبعثرت الميزانية اليوم في صراع الجيشينِ

قتلتني الميزانية بالفقر

حتى فقري اشتكى إلى الميزانية فقري

يزيد الغني غنىً ، ويزيد الفقير فقرا ، وتُمحقُ الفئة المنافسة للأغنياء الفئة الوسطى

هذا اتجاه عالمي جديد

ليس بعد العولمة

بل بعد ما بعد العولمة

أرأيتَ الألم الذي على ألمي

لا تبكِ يا أماه

ألستِ في بلد عربي

وهو نفسه الذي يفعله الأفريقي والأمريكي والأسيوي والأوروبي

نقتلُ بعضنا ، ونقتل غيرنا

إما أن تقتِل أو تُقَتَل

نتقاتل ثم نرجع من حيث بدأنا

ألمانيا صارت بعد الحرب أصغر

وفيتنام صار حربها متحفا للسائحين

واليابان رجعت عن الفلبين واندونسيا والصين

ونُسِي بيرل هاربر

إذن لمَ بدأنا الحرب ؟ لماذا ضيعنا ما ضيعنا !

وقتلتم من قتلتم !

ودمرتم ما دمرتم ؟

هذا في المعاصرين

أين السابقون ؟ أين الأمم السابقة ؟ تستاحون حول بقاياها

لكنكم لستم لقصة التاريخ مستوعبين

ستمضي وستزول مع الزائلين

أين الطغاة والمستبدين

أين هم ؟!

تحت التراب ، تحت الطين

عبث بشري

في كل بلد

الشعبُ محتلٌ

بعضهم يدري وكثير منهم لا يدري

أليس المغربي يقتل الجزائري

والمصري يحبس المصري

والأفريقي يستغل الأفريقي

يبيع اليمنيُ باليمنيَ ويشتري

والفلسطيني يخابر الصهاينة على الفلسطيني

والتونسي ينقلب على التونسي

والليبي يعتدي على الليبي

والعربي يقتل العربي

والمسلم يكره المسلم

والنصراني يقتل النصراني

واليهودي يلعن الآخر اليهودي

والكوري حدوده خطا فاصلا مع الكوري

والصيني يريد أن يغتصب أرض التايواني

والروسي يحتل بلد الأوكراني

والهندي حريق على الباكستاني

والباقي - وهل بقيَ باقٍ - إما يضع الحطبَ أو يحرض أو يتفرج !

جيش بلدي بدلا من أن يحميني

احتلني ؟!

أيها الإنسان

ما هذا الذي يجري ؟!

مدارسنا بلا نوافذ

نوافذ مدارسنا ضاعت بميزانية قنابلك

وتهدمت جدرانها بميزانية بارودك

والشعب يزداد فقرا لبناياتك

تعالج في مشفاك مائتين

وفي الحرب ، في البلد نفسه تقتل مليونين

ما هذا العبث بالإنسان

يا تاجر الأوطانِ ، يا تاجر الحربِ

كم اليومَ سِعرُ الصرفِ لدمي ؟!

أرأيت لمَ نزف جرحي !

بقي أمرٌ غيبي :

أسباب الحروب إما سياسية أو اقتصادية أو دينية أو مشتركة أو متداخلة استعمارية

وقد يغلب أحدها ولا يلغ البقية

حرب دينية قادمة

قائدها عيسى عليه الصلاة والسلام

ومعه المسلمون ممن كانوا على نهج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم والبقية

وربما سيكون من المسلمين ضده ممن ينتظرون المهدي المتسردب

وسيكون من النصارى معه وضده

وسيكون اليهود ضده جزما، لم يقتلوه المرة الأولى وسيحاولون ثانيةً قتله

وسيجيء يأجوج ومأجوج ضد كل هؤلاء

الحرب جزء من حياة البشر

حينما أوقفَ الغربُ هتلر

صاروا بدورهم هتلر

تقاسموا التركة العثمانية

عبثوا ببلاد العرب

وببلادٍ أفريقية وبأمريكا الجنوبية

وأخطر شيء أن عبثوا بأنفسهم !

كيف حاربتم هتلر المريض العقلي ، وقمتم بالفعل نفسه ؟!

كيف ساءَكم معتقلات هتلر ، ولم يسؤكم ما اعتقلتم ؟!

سجون العراق

سجون جوانتانامو

سجون أفريقيا

سجون إسرائيل

إذا ضقتم وضاق المعتقلون بالأسلاك الشائكة من اليابانيين والألمان ، والفنلديين

فماذا عن الأسلاك الإسمنتية الصهيونية ؟!

أليس الفلسطينيون في هولوكستٍ جديد ؟!

حرب قادمة دينية

معيار نجاتها : من سيكون حول عيسى عليه الصلاة والسلام ومن سيكون مع المسيح الدجال !

أيام صعبة

الأرض متجهة بسكانها إلى يوم القيامة

اقرأ في علامات الساعة الكبرى

وقد يحدث بين إلى حينذاك حروبا أخرى سياسية واقتصادية ودينية واستعمارية أيضا

فالقيامة غيب

لكنه أصدق من الحس والمشاهدة

هذا كلام الأنبياء والرسل

فكن مع الأنبياء والرسل

وليس الشأن في الحرب

إنما الشأنُ :

أنتَ في أيةِ صف ؟!

غطَّتْ أمي جسميَ الميت

وكان تحت الغطاء دمعي يجري

لم يتوقفْ

انتهى